

## شهادة أسير ألماني على حكم المهدي في السودان

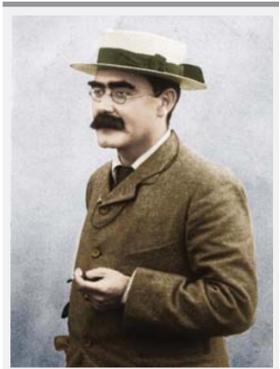
«سجين الخليفة» كتاب يكشف انتهازية أصحاب الخطاب الديني



القوات البريطانية تهزم دراويش المهدي في معركة أبو طليح

سيطول، لكنه سيحظى بالخروج بعد سنوات بسبب خدمته حسنة التي ستحمّل من السجن إدريس السابر، الحرية مقابل إعلان القبيلة تأييدها والولاء التام له باعتباره الخليفة الأحق بالطاعة، وهو ما حصل بالفعل. وبدت شخصية التعايشي المصدرة من خلال شهادة نيوفيلد، انتهازية، وشديدة المكر والدهاء، وتعتمد القوة أساساً للحكم.

وهنا سيقومون بإخراجه من السجن وتحديد إقامته داخل أم درمان، وبالفعل يوافق على الزواج بحسنة ويعمل طبيباً لأسرة الخليفة عبدالله التعايشي لبقية مسدد الإقامة داخل أم درمان، ثم يتابع الشاهد قصص هروب الكثير من السجناء ومنهم رولف سلاطين.



رودبارد كيلنج: أيها الفارس اللعين والمقاتل المصطفى، إليك يا ذا الشعر الثائر، تهانينا فقد كسرت المربع البريطاني

ويحكي بعد ذلك عن بدء إرسال رسالته إلى قيادة القوات البريطانية والقتل الألماني في القاهرة يخبرهم فيها بأنه حي، بعد أن فشل في الهرب، ثم تنتصر القوات على المهديين في عدة معارك وتقبض على الخليفة وتعدمه لتنتهي الحركة المهديّة تماماً، وتحرر السجناء، ويعود بعدها الأسير الأوروبي إلى حريته.

يستعرض الشاهد آراءه بشأن السودان، قبائله، عادات أهله، سماتهم الإنسانية، وتصوره للناحية الدينية في تسيير المهدي، وتوجيه الناس، مع قراءة سريعة المهديّة لم يقيموا حكماً أفضل وأعدل من الحكم الذي اطلّحوا به، وأنهى الرجل شهادته بأنه أن الأوان لنرى السودان بنظرات واضحة، وشفيقة، وأن ننظر إليه نظرة مختلفة عن النظرة السابقة.

لدولته، فمثلاً كان من بين السجناء ثلاثة من أبناء زعيم قبيلة الشكرية، وبعد فترة طويلة في السجن عرض الخليفة عليهم الحرية مقابل إعلان القبيلة تأييدها والولاء التام له باعتباره الخليفة الأحق بالطاعة، وهو ما حصل بالفعل. وبدت شخصية التعايشي المصدرة من خلال شهادة نيوفيلد، انتهازية، وشديدة المكر والدهاء، وتعتمد القوة أساساً للحكم.

## حكايات كاشفة

قدم الكاتب ذلك من خلال حكايات شهدها خلال فترة السجن، منها مثلاً حكاية شيخ دين سوداني اسمه حمد النيل، لم يكن قد شارك في الحرب المهديّة ولم ينضم إلى أي طرف، لكنه كان يحظى بشعبية كبيرة، ويقول للناس إن المهدي ومن معه كاذبون، ما دفع الخليفة إلى أن يُلحق له تهمة حيازة تمباك (دخان) في بيته، وكان محرماً بامر المهدي ثم حكم عليه بالسجن ومصادرة أمواله.

وبقي حمد النيل مسجوناً إلى أن اعتلت صحته وقارب على الهلاك، فقام الخليفة بإطلاق سراحه، لكن تحسّن صحته دفع الخليفة إلى أن يامر بالقبض عليه مرة أخرى ليسجنه حتى الموت. وحتى قرار الخليفة بالإبقاء على نيوفيلد حياً استهدف إقناع أنصاره بأنه فعل ذلك ليثبت للناس أن ملك ألمانيا يخاف أن يرسل جيشاً لتحرير الأسير الألماني، لأنه يخشى باسه وقوته.

في يوم من الأيام حضر شخصان إلى السجن وطلبا تشارلز نيوفيلد الذي تحول اسمه إلى عبدالله المسلماني، وقال له إن الخليفة يريدك، وتوقع الحاكم نهايته، فودع زملاءه ومضى معهما بسلاسله الثقيلة التي أصابت قدميه بالورم والقروح، غير أنه فوجئ بالخليفة يطلب منه أن يستعرض جيشه، ليرى صفوفاً من الرجال والخيول والعتاد، وسأله أحدهم عن رأيته، فقال "إن لديكم الرجال والخيول لكن ينقصكم التدريب".

أعادوه إلى السجن مرة أخرى ليرى تخفيف القيود عنه ويسمح له بالخروج كل صباح مع السجناء إلى شاطئ النيل للوضوء ثم الاصطاف في الصلاة والجلوس بعدها لسماع القرآن وتفسيرات المهدي لها.

كان الحرس يقبلون بخروج البعض إلى النهر للاستحمام خارج الأوقات المقررة مقابل "بقتشيش" يحصلون عليه ممن هم لديهم أموال، لكن تكرار عمليات الهروب من خلال النهر دفع الخليفة إلى أن يامر بحفر بئر يوصل ماء النيل دون أن يسمح لأحد بالوصول إلى النهر نفسه.

المهم أن مقام نيوفيلد بالسجن

لم تتم حكاية الثورة المهديّة في السودان فصولها كما يقولون، فما زالت بحاجة إلى دراسات وافية، ويمثل كتاب "سجين الخليفة" لتشارلز نيوفيلد إطلالة جانبية مهمة على أحداث الثورة، ويكشف بذلك انتهازية أصحاب الخطاب الديني للوصول إلى السلطة.



ثورة المهديّة بالنسبة إلى البريطانيين حدث استثنائي انغرس في وجدانهم سنين عدداً. وليس أدل على ذلك من أن الشاعر البريطاني الكبير رودبارد كيلنج (1865 - 1936) كتب في إحدى قصائده عن الثائر السوداني محمد المهدي الذي قلب السودان رأساً على عقب، وسماه الأثعث، ووصفه بأنه يقفز بين الأحرار حاملاً ترسا وجرية، وقال له "أيها الفارس اللعين والمقاتل المصطفى، إليك يا ذا الشعر الثائر، تهانينا فقد كسرت المربع البريطاني".

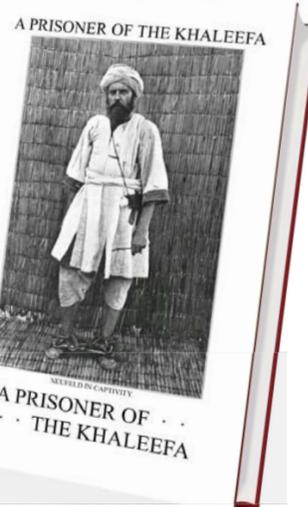
مثلت الثورة منذ قامت في مارس 1881 انطلاقاً مبكراً لرجال الدين لانتزاع السلطة، إذ دعا محمد أحمد المهدي زعماء القبائل لمبايعته بعد أن رأى النبي محمد في المنام وأخبره أن يبداً دعوته ويستولي على السلطة.

بالفعل ثارت القبائل معه وطردوا الإدارة المصرية، ثم حققوا انتصارات متوالية على القوات البريطانية التي ذهبت إلى هناك بقيادة تشارلز غوردون، ومعها فلور الجيش المصري المنهزم مع أحمد عرابي، وانتهى الأمر بحصار قوات المهدي للخرطوم واقتحامها وقتل غوردون نفسه، ثم توفي المهدي لاحقاً وخلفه عبدالله التعايشي الذي حمل لقب الخليفة.

يحكي الشاهد عن سجنائه معه وكيف كان الخليفة عبدالله التعايشي يوظفهم لتحقيق انتصارات جديدة لدولته

من هنا تكتسب أي شهادة بشأن تلك الأحداث أهمية قصوى لتفتح لنا نافذة على أحداث غرائبية مثيرة، ربما مثلت استثناءً في تاريخ الاستعمار للمنطقة العربية، ويمثل كتاب "سجين الخليفة" لتشارلز نيوفيلد شهادات لم تطلع عليها الأجيال الحديثة. لقد كان من المفيد أن يتيح مشروع "غوتتبرغ" البريطاني لنشر الكتب القديمة والنادرة ذلك الكتاب للباحثين للاستفادة من شهادات لم تطلع عليها الأجيال الحديثة.

صدر الكتاب سنة 1899 في لندن عن دار شابمان - هال، في 25 فصلاً ونحو 330 صفحة، ويحكي تجربة ذاتية لرجل أعمال ألماني الجنسية هو تشارلز نيوفيلد كان على اتصال بالجيش البريطاني، وحصل على إذن للدخول لشراء أسلحة صمغ عربي مُغرية، لكنه وقع في الأسف لدى قوات المهدي، وظل سجيناً اثني عشر عاماً في أم درمان خلال فترة التعايشي.



يمتاز الكتاب عن غيره من الكتب بعدة سمات تجعل منه مرجعاً مهماً أولاً أنه شهادة رجل مدني غير بريطاني